خطبة صلاة الجمعة 1/ 11/ 2024 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(الإمام عبد الله بن المبارك – العالم التاجر المجاهد)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: 15].

أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قيل: يا رسول الله، ما يَعْدِل الجهادَ في سبيل الله؟ قال: **«لا تستطيعونه»**، فأعادوا عليه مرتين، أو ثلاثاً، كلُّ ذلك يقول: **«لا تستطيعونه»**، ثم قال: **«مَثَلُ المجاهد في سبيل الله، كمثل الصائم القانِتِ بآيات الله، لا يَفْتُرُ من صيام ولا صلاة، حتى يرجعَ المجاهدُ في سبيل الله»**.

عنوان خطبة اليوم: **الإمام عبد الله بن المبارك (العالم التاجر المجاهد)**

الإمام شيخ الإسلام عالم زمانه، المجاهد المرابط التاجر المنفق، أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك المروزي، الحافظ، أحد أعلام الإسلام، ولد سنة ثمان عشرة ومائة. وطلب العلم وهو ابن عشرين سنة.

وارتحل في طلب حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحرمين، والشام، ومصر، والعراق، والجزيرة، وخراسان، واشتغل بالعلم حتى قلت مجالسته للناس

قال نُعيم بن حماد قال: كان ابن المبارك يكثر الجلوس في بيته، فقيل له: ألا تستوحش؟ فقال: كيف أستوحش وأنا مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه؟!

وقال شقيق البلخي: قيل لابن المبارك: إذا أنت صليت لم لا تجلس معنا؟ قال: أجلس مع الصحابة والتابعين، أنظر في كتبهم وآثارهم، فما أصنع معكم؟ أنتم تغتابون الناس.

قال فيه الإمام أحمد بن حنبل: لم يكن أحد في زمان ابن المبارك أطلب للعلم منه.

ثم اشتغل ابن المبارك بالتعليم والتحديث، فحدَّث بأماكن كثيرة واجتمع عليه الناس، قال أشعث بن شعبة المصيصي: قدم الرشيد الرقة، فانجفل الناس خلف ابن المبارك، وتقطعت النعال، وارتفعت الغبرة، فأشرفت أم أمير المؤمنين من قصرها، فقالت: ما هذا؟ قالوا: عالم من أهل خراسان قدم. قالت: هذا – والله– الملك، لا ملك هارون الذي لا يجمع الناس إلا بشرط وأعوان.

قال العباس بن مصعب: جمع عبد الله الحديث، والفقه، والعربية، وأيام الناس، والشجاعة، والسخاء، والتجارة

حدَّث أصحابه في سخائه أنهم صحبوه من مصر إلى مكة، فكان يضع لهم الطعام فيأكلون، وهو صائم.

وقالوا: كان ابن المبارك إذا كان وقت الحج، اجتمع إليه إخوانه من أهل مرو، فيقولون: نصحبك. فيقول: هاتوا نفقاتكم. فيأخذ نفقاتهم، فيجعلها في صندوق، ويقفل عليها، ثم يكتري لهم، ويخرجهم من مرو إلى بغداد، فلا يزال ينفق عليهم، يطعمهم أطيب الطعام، وأطيب الحلوى، ثم يخرجهم من بغداد بأحسن زي، وأكمل مروءة، حتى يصلوا إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول لكل واحد: ما أمرك عيالك أن تشتري لهم من المدينة؟ فيقول: كذا وكذا. فيشتري لهم ثم يخرجهم إلى مكة، فإذا قضوا حجهم، قال لكل واحد منهم: ما أمرك عيالك أن تشتري لهم من متاع مكة؟ فيقول: كذا وكذا. فيشتري لهم، ثم يخرجهم من مكة، فلا يزال ينفق عليهم إلى أن يصيروا إلى مرو، فيجصص بيوتهم وأبوابهم، فإذا كان بعد ثلاثة أيام، عمل لهم وليمة وكساهم، فإذا أكلوا وسروا، دعا بالصندوق، ففتحه، ودفع إلى كل رجل منهم صرته عليها اسمه.

قال محمد بن عيسى: كان ابن المبارك كثير الاختلاف إلى طرسوس، وكان ينزل الرقة في خان، فكان شاب يختلف إليه، ويقوم بحوائجه، ويسمع منه الحديث، فقدم عبد الله مرة، فلم يره، فخرج في النفير مستعجلاً، فلما رجع سأل عن الشاب، فقال: محبوس على عشرة آلاف درهم. فاستدل على الغريم، ووزن له عشرة آلاف، وحلفه ألا يخبر أحداً ما عاش، فأخرج الرجل، وسرى ابن المبارك، فلحقه الفتى على مرحلتين من الرقة، فقال لي: يا فتى أين كنت؟! لم أرك؟ قال: يا أبا عبد الرحمن! كنت محبوساً بدين. قال:

وكيف خلصت؟ قال: جاء رجل فقضى ديني، ولم أدر. قال: فاحمد الله، ولم يعلم الرجل إلا بعد موت عبد الله.

أما عن جهاده: فمما روى عنه عبدة المروزي، قال: كنا سرية مع ابن المبارك في بلاد الروم، فصادفنا العدو، فلما التقى الصفان، خرج رجل من العدو، فدعا إلى البراز، فخرج إليه رجل فقتله، ثم آخر فقتله ثم آخر فقتله ثم دعا إلى البزاز، فخرج إليه رجل منا، فطارده ساعة، فطعنه، فقتله، فازدحم إليه الناس، فنظرت، فإذا هو عبد الله بن المبارك، وإذا هو يكتم وجهه بكمه!!

ومما رووه بعد موته قال محمد بن الفضيل بن عياض: رأيت ابن المبارك في النوم، فقلت: أي العمل أفضل؟ قال: الأمر الذي كنت فيه. قلت: الرباط والجهاد؟ قال: نعم. قلت: فما صنع بك ربك؟ قال: غفر لي مغفرة ما بعدها مغفرة.

ولما مات ابن المبارك في رمضان سنة واحد وثمانين ومائة قال هارون أمير المؤمنين: مات سيد العلماء.

وقد أفنى ابن المبارك عمره في الأسفار، حاجاً ومجاهداً وتاجراً، وجمع الحديث والفقه والعربية.

قال الحسن بن عيسى: اجتمع جماعة فقالوا: تعالوا نعد خصال ابن المبارك من أبواب الخير، فقالوا: العلم، والفقه، والأدب، والنحو، واللغة، والزهد، والفصاحة، والشعر، وقيام الليل، والعبادة، والحج، والغزو، والشجاعة، والفروسية، والقوة، وترك الكلام فيما لا يعنيه، والإنصاف.

قال حبيب الجلاب: سألت ابن المبارك: ما خير ما أعطي الإنسان؟ قال: غريزة عقل. قلت: فإن لم يكن؟ قال: حسن أدب. قلت: فإن لم يكن؟ قال: أخ شفيق يستشيره. قلت: فإن لم يكن؟ قال: صمت طويل. قلت: فإن لم يكن؟ قال: موت عاجل.

قال حاتم بن الجراح: سمعت علي بن الحسن بن شقيق، سمعت ابن المبارك، وسأله رجل عن قرحة خرجت في ركبته منذ سبع سنين، وقد عالجتها بأنواع العلاج، وسألت الأطباء، فلم أنتفع به. فقال له: اذهب فاحفر بئراً في مكان حاجة إلى الماء، فإني أرجو أن ينبع هناك عين، ويمسك عنك الدم. ففعل الرجل، فبرأ.

أيها الإخوة:

ألف ابن المبارك كتابا سماه الجهاد جمع فيه بعض أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعض آثار الصحابة والتابعين المتحدثة عن الجهاد، ليكون دافعاً للمجاهدين المؤمنين الباذلين مالهم ومهجهم رخيصة لنيل رضا الرحمن دافعاً لهم للصدق عند اللقاء والجلاد، وتحريضاً على قلع ذوي الكفر والعناد.

وابن المبارك أول من صنف في باب الجهاد، وها أنا أختار لكم شيئاً مما جاء في الكتاب:

روى بإسناده عن الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث جيشا فيهم عبد الله بن رواحة، فغدا الجيش، وأقام عبد الله بن رواحة ليشهد الصلاة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما قضى النبي صلى الله عليه وسلم صلاته قال: **«يا ابن رواحة، ألم تكن في الجيش؟»** قال: بلى يا رسول الله، ولكني أحببت أن أشهد الصلاة معك، وقد علمت منزلهم فأروح وأدركهم قال: **«والذي نفسي في يده لو أنفقت ما في الأرض ما أدركت فضل غدوتهم»**.

وبإسناده عن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«روحة في سبيل الله أو غدوة خير من الدنيا وما فيها، أو ما عليها»**.

وبإسناده عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **«إن مثل المجاهد في سبيل الله – والله أعلم بمن يجاهد في سبيله – كمثل القائم الصائم الخاشع الراكع الساجد»**.

وبإسناده عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **«مثل المجاهد في سبيل الله كالصائم القائم بآيات الله آناء الليل وآناء النهار، مثل هذه الأسطوانة»**.

وبإسناده عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«ما من نفس تموت لها عند الله خير يسرها أن ترجع إلى الدنيا، ولها الدنيا وما فيها إلا الشهيد؛ لما يرى من فضل الشهادة، فيتمنى أن يرجع فيقتل مرة أخرى»**.

وبإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«لولا أن أشق على أمتي أو قال على الناس لأحببت أن لا أتخلف عن سرية تخرج في سبيل الله، ولكن لا أجد ما أحملهم عليه، ولا يجدون ما يتحملون عليه، ولشق عليهم أن يتخلفوا بعدي، أو نحوه. ولوددت أني أقاتل في سبيل الله فأقتل، ثم أحيا ثم أقتل، ثم أحيا ثم أقتل»**.

وبإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في منخري عبد مسلم أبدا»**.

وبإسناده عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **«والذي نفس محمد بيده لا يكلم أحد في سبيل الله – والله أعلم بمن يكلم في سبيله – إلا جاء كهيئته يوم القيامة، اللون لون الدم، والريح ريح مسك»**.

وبإسناده عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**تكفل الله لمن خرج من بيته مجاهدا في سبيل الله لا ينهزه إلا الجهاد في سبيله، وتصديق كلمته، أن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه بما نال من أجر أو غنيمة**».

وبإسناده عن قتادة أنه تلا هذه الآية: «﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ فقال: ثامنهم الله فأغلى لهم».

وبإسناده عن أبي الدرداء: «القتل في سبيل الله يغسل الدرن، والقتل قتلان كفارة ودرجة».

وعن معاوية بن قرة قال: «كان يقال لكل أمة رهبانية، ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله».

وبإسناده إلى المطلب بن حنطب قال: «إن للشهيد غرفة كما بين صنعاء والجابية، أعلاها الدر والياقوت، وجوفها المسك والكافور قال: فتدخل عليه الملائكة بهدية من ربه تبارك وتعالى، فما تخرج حتى يدخل عليه ملائكة آخرون من باب آخر بهدية من ربهم».

أيها الإخوة:

هذا شيء من الحديث عن الإمام عبد الله ابن المبارك وكتابه الجهاد، وإن خيرَ من تقرؤون في فعالهم اليوم شرحَ هذه الأحاديث والآثار أهلُ غزة ولبنان وفلسطين، والواجبُ علينا ثلاثة أمور:

- الزموا الحق وأهله، واذكروا أن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل، فكونوا في جانب الله تعالى طاعة لأمره وإقامة لشرعه، ونصرة لدينه، في أنفسكم وفي بيوتكم وفي أسواقكم وفي مجتمعكم.
- أعينوا بما استطعتم من قام مبارزاً الباطل وأهله، منافحاً عن الحق ورايته، فكونوا عوناً لإخوانكم في غزة وفلسطين ولبنان.
- اصبروا واستعدوا إيماناً وتربيةً وقوة ليوم النزال، حتى إذا دعيت للنفير كنت من أهله. وإذا لم تدعَ كتب الله لك نيةَ ذلك.

(من مراجع الخطبة سير أعلام النبلاء للذهبي، وكتاب الجهاد لابن المبارك)

والحمد لله رب العالمين